حول استخدام كتابات الآباء

جان-كلود لارشيه
نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

لكي نصوغ لاهوتًا سليمًا، لا تكفي الإشارة إلى كتابات الآباء والاستشهاد بها – مثلما لا تكفي الإشارة إلى الكتاب المقدّس والاقتباس منه – لأنّه كما يمكن استخدام كتابات الآباء على نحوٍ سليم، يمكن أيضًا استخدامها على نحوٍ سيّئ.

I. يُسيء اللاهوتيّ استخدام كتابات الآباء عندما يضعُها في خدمة فكره الخاص. فقد يبتدع مفاهيم خاطئة، ولتبريرها، يستشهد بأقوالٍ آبائيّةٍ ينتزعها من سياقها. هذا ما نلاحظه لدى جميع الهراطقة، ولكن أيضًا لدى مَن يمثّلون "الفلسفة الدينيّة الروسيّة الحديثة"، مثل سرجيوس بولغاكوف أو بول إفدوكيموف[1].

II. إنّ الاستخدام السليم لكتابات الآباء في اللاهوت، يقتضي أوّلًا أن يتجاهل اللاهوتيّ فكره الخاصّ، وأن يتساءل أمام أيّ سؤالٍ أو مشكلة: "ما هو رأي الآباء في هذا الشأن؟". في كلّ موضوعٍ يدرسه، ينبغي له أن يجمع كلّ نصوص الآباء المختصّة بهذا الموضوع، ثمّ أن يحدّد المشترك بينها، إذ توجد اختلافاتٌ مشروعةٌ في المقاربات الآبائيّة (تنتج عادةً من اختلاف السياقات)، وأن يستوحي منه لمعالجة موضوعه.

على اللاهوتيّ أن يسعى للتفكير وفقًا للآباء، ومع الآباء، ومثل الآباء. لذلك، عليه أن يتواضع ويضع رأيه الخاصّ جانبًا، ويتشرّب كالإسفنجة ما قاله الآباء.

بعدها يصبح تدخّله الشخصيّ ممكنًا ومسموحًا بهدف استخلاص الاستنتاج، والإجابة عن أسئلةٍ لم يُجِبْ عنها الآباء لأنّها لم تُطرَح في عصرهم (مثل بعض الأسئلة المختصّة بأخلاقيّات علم الأحياء المرتبطة بالتطوّرات التقنيّة الحديثة)، أو في حال ظهور أخطاء جديدة في تفسير

[1] كتب الأب جورج فلورفسكي حول هذا الأخير: يستمرّ إفدوكيموف في التقليد الذي اتّبعه الأب سرجيوس بولغاكوف؛ إنّه لا يتبع روح الآباء القدّيسين مع أنّه يستشهد بأقوالهم (رسالة إلى S. Tyszkiewicz في ١٧ ك١ ١٩٦٠).

العقيدة (لأنّ بدعًا جديدةً ستظهر حتّى نهاية العالم). ولكن في هذه الحالة، يجب على اللاهوتيّ أن يستند دائمًا إلى الأسُس التي وضعَها الآباء (مثلًا إلى مبادئ الأنثروبولوجيا التي وضعوها في ما يختصّ بأخلاقيّات علم الأحياء؛ أو إلى الأسُس العقائديّة التي أرسوها ضدّ الهرطقات الجديدة).

III. ثمّة تباينٌ من حيث المنهجيّة بين المقاربة الأرثوذكسيّة لفكر الآباء، والمقاربتَين الكاثوليكيّة والبروتستانتيّة. يهتمّ النهج الأكاديميّ الغربيّ بالاختلافات الموجودة في فكر الآباء أكثر من اهتمامه بالقواسم المشتركة؛ ففي كلّ نقطةٍ تُدرَس، يجري التركيز على إظهار موضع الاختلاف بين فكر أبٍ وآخر. هذا النهج يتوافق مع مفهوم التيّار البنيويّ الحديث الذي يرى أنّه داخل بنيةٍ ما، يتحدّد معنى كلّ عنصر وقيمته من خلال اختلافه عن العناصر الأخرى. أما المنهجيّة الأرثوذكسيّة فتنتمي إلى شكلٍ مختلفٍ من البنيويّة، يمكننا تسميته "البنيويّة الإيجابيّة" أو "البنيويّة التوحيديّة". وهي تهدف إلى استخراج البنية المشتركة الكامنة في فكر الآباء، ما يؤدّي بشكلٍ أساسيّ إلى توحيد آرائهم وتجاوز اختلافاتهم. هذا العنصر المشترك هو التقليد، أو مع ما يُسمّى الإجماع الآبائيّ *(Consensus Patrum)*، أو أيضًا جامعيّة الكنيسة، أي ما تتصوّره في كليّتها وكمالها وشموليّتها.

Source: Jean-Claude Larchet (2022). *Qu'est-ce que la théologie ? Méthodologie de la théologie orthodoxe dans sa pratique et son enseignement.* Chapitre V: La Patrologie, p. 90-92. Editions des Syrtes, Genève.